تأملات في ظاهرية ابن حزم وإعجاز الرسالة المحمدية

عبد الحميد أحمد أبو سليمان*

ابن حزم من الشخصيات العلمية التي لا يمكن أن يخطئها طلاب الفكر الإسلامي وتاريخه. فقد تميّز فكره بأنه فكر علمي منهجي منضبط[1] يلتزم العقل والواقع والتجربة والحواس في غاية من الجرأة والوضوح ويرفض الخزعبلات والتوهمات والتهويمات مهما تلبست من الثياب والأحوال.

ومن الواضح أن عقلية ابن حزم العلمية المنهجية من أهم الأسباب في تاريخ الأمة الفكري الذي أسهم في التقليل من شأنه وإنكار منهجه العلمي.

ومما يلفت النظر أن التزام ابن حزم ظاهر النص وحده في أحكام الشريعة والتزاماتها يمثل امتدادا طبيعيا لمنهجيته العلمية التي التزمت العقل والحس والتجربة ولذلك إنّ ما يصدر عن الغيب ويُوحى به من الله ليس للبشر أن يزيد عليه أو ينقص منه، فليس للعقل إلا أن يدركه كما هو لأن العكس من ذلك يؤدي إلى تأليه العقل وخلط الشهادة بالغيب دون حجة ولا سند.

وقد أعمل ابن حزم عقله وعلمه ودرايته ومنهجه العلمي في فهم الوحي ونصوصه مما جعله قادرا على فهم الشريعة وأحكامها بنحوٍ أرغم منكري منهجه قبل مريديه

---

* دكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة بانسلفينيا، ١٩٧٢، مدير الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ورئيس مجلس أمناء المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

١ انظر: أنور الزعبي، **ظاهرة ابن حزم الأندلسي: نظرية المعرفة ومناهج البحث**، سلسلة المنهجية الإسلامية (١) (الأردن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار البشير للنشر والتوزيع، ١٩٩٦).

على احترام فقهه وفكره واعتباره حجة علمية شرعية لا يزال ينهل منها طلاب العلم والمعرفة حتى اليوم.

وتجاهل أصحاب العقلية العلمية المنهجية ظاهرة من الظواهر التي عاناها تاريخ فكر الأمة المتأخر الذي أصابه الجمود وأذبله تمزق المعرفة الإسلامية واستحكام قبضة عزلة العلماء والمثقفين المسلمين في أروقة المساجد والمدارس. وهذا التقليل من شأن أصحاب العقلية العلمية المنهجية وضعف الحفاوة بهم لم يقتصر على ابن حزم وحده ولكن ذلك الموقف السلبي نجده يمتد إلى جل أصحاب العقلية المنهجية العلمية مثل ابن تيمية الذي ناصبه جمهور كبير من العلماء والمثقفين العداء ووصموه بالمروق عن الدين، ومثل ابن خلدون الذي تجاهل فكره جمهور العلماء والمثقفين وبقي مغموراً مهملاً إلى أن كشف علماء الغرب من أصحاب المنهجية العلمية عن مدرسته وإعطائها حقها من التقدير والعناية ومثل هؤلاء كثيرون، ممن أُهمِل فكرهم أو أُنكِر منهجهم.

ومن يتأمل في حياة هؤلاء النوابغ النوادر في تاريخ الأمة الفكري المتأخر، منذ عهد إغلاق باب الاجتهاد فيما بعد القرن الرابع الهجري، يجد أن هذه الفلتات الفكرية كانت نتيجة حياة علمية تختلف عن الأنماط الفكرية المدرسية السائدة التي اتسمت بتمزق المعرفة وعزلة العلماء عن الحياة والواقع.

فابن تيمية وابن حزم وابن خلدون وأمثالهم لم يكونوا فقط علماء وفقهاء، بل كانوا أصحاب خبرة ودراية وممارسة حياتية وسياسة كونت لديهم معرفة عقلية علمية متكاملة جعلت علمهم يتفاعل مع عملهم وممارساتهم ودرايتهم بحيث يتعاملون بأصالة مع واقع الحياة ومتغيراته المعاصر لهم ولذلك كانت آراؤهم واجتهاداتهم أصيلة نيرة.

وعلى الرغم من اطّراد منهج ابن حزم العلمي المنضبط في تعامله مع الغيب والشهادة إلا أنّه واجه مشكلة عويصة في بحثه عن ماهية الدليل العقلي في قبول مبدأ الوحي مصدراً للمعرفة وتمحيص حقيقته وحقيقة الشريعة وتقبلها والالتزام بها.

ولما كان منهج ابن حزم يلتزم العقل والشهادة ولا يقبل دعاوى التوهمات والتهويمات الباطنية والغنوصية لذلك كان لا بد له أن يجد دليلا عقليا علميا منهجيا كأساس وقاعدة يستند إليها في تقبله للوحي والتزامه به عقلاً.

وقبول حجية الغيب لا يمكن أن تتأتى عقلاً إلا بقبول صدقية الرسول ﷺ وصدقية الرسالة.

وهنا نجد ابن حزم موّزعاً بين منهجه العقلي العلمي الذي لا يلتزم إلا العقل والحس والتجربة مصدراً حقيقياً مشروعاً للمعرفة وبين معرفته بعظمة رسالة الإسلام وضرورتها في اتساق الحياة البشرية واستقامه أمرها وتكامل الغيب والشهادة في معنى وجودها.

وكذلك لا بد لابن حزم أن يجد هذا الدليل العقلي الذي يتسق مع طبيعة فكره ومنهجه ويمثل حلقة الوصل العقلية المنضبطة بين الغيب والشهادة دون الوقوع في شرك التوهمات والتهويمات الغنوصية .

وحتى يجد ابن حزم دليله ويمسك بالحلقة المفقودة وحيث لا يمكن قبول دعاوى الاتصال الغنوصي بعالم الغيب فكان لابد له أن يلتفت إلى حياة الرسول ﷺ ليجد فيها دليله وسند صدقه العقلي العلمي المنهجي الذي التزمه في فكره وأدائه. فصدق الرسول ﷺ لا بد أن يتأتى من دليل حي يلزم العقل بالقبول والتسليم.

لذلك كان بحث ابن حزم عن الاعجاز في حياة الرسول ﷺ هو الأساس العقلي العلمي المنهجي لقبول الرسالة والتسليم بها في عالم الشهادة ويتكامل بقبولها الربط العقلي بين عالم الغيب والشهادة. وهذا المنطلق العقلي المنهجي هوالمنطلق الوحيد السليم بالضرورة عند ابن حزم في قبول قضايا الغيب والتسليم بها.

ولكن ما وجه الاعجاز في حياة الرسول ﷺ الذي يستطيع ابن حزم أن يقدمه وأن يلزم به العقل ولا يدع معه مجالاً للجدل والشك والمنازعة؟

وعلى الرغم من سلامة منهج ابن حزم وسلاسة وجهته المنهجية إلا أنّه من المؤسف أن ابن حزم قد أخطأ ضالته و لم يوفق في استخراج النتائج الصحيحة من المقدمات التي وضعها والالتزام بها.

فالاعجاز الذي اهتدى إليه ابن حزم انتهى بالقول بإعجاز الخوارق المادية وما تعلق بها من قصص المعجزات التي نسبت إلى الرسول ﷺ.

هذه الخوارق وإن صدقت وسلم بها المؤمنون في يسر إلا أنها يمكن أن تثير كثيرا من الجدل في مكانة السند والرواية ومبالغات الرواة وخداع الحواس وكثير غيره مما يمكن أن يمتد إليه الجدل والمماحكة بحيث قد ينتهي الأمر عند الكثير من هؤلاء بالقول بأن لزوم الإيمان بهذه الخوارق إنما يقتصر على من حضر هذه الخوارق فقط وشاهدها دون سواه من الناس. فإن قبل بها بعض الناس فهو من باب القابلية للتسليم بمثل هذه الدعاوى ومن باب الحب والاحترام والاعجاب بصاحب الرسالة أو من باب الحب

والاحترام لأصحاب العلم والمعرفة الذين يسلمون بهذه الخوارق أو يتقبلونها خوفا ورهبة وطلبا للنفع أو السلام.

وأحسب أنني على شاكلة ابن حزم في التوجه نحو التزام المنهج العقلي العلمي المنضبط حيث واجهت نفس السؤال منذ نعومة الأظفار حين يتفتح وعي اليافع على معنى الوجود حيث انتهى مآله وغايته وعلاقة الشهادة بالغيب فيه وحين يواجه حيرة خيار السبيل الذي يجب عليه أن يسلكه.

وتوجه تفكري علمياً تلقائياً إلى حياة الرسول ﷺ أتلمس فيها الحلقة التي توجب صدقه في النقل عن عالم الغيب وتوجب تقبل الرسالة والالتزام بها.

فدون هذا الدليل والامساك بهذه الحلقة المفقودة لا مجال لهذا الالتزام وإن كان ذلك لا يمنع الاعجاب والتقدير لما يقول أدعياء الرسالات إن كان في فكرهم ما يستحق الاعجاب والتقدير.

وعلى غير شاكلة ابن حزم فإنني لا أجد الدليل والحلقة المفقودة في الخوارق المنسوبة إلى الرسول ﷺ دون إنكار امكانها. ولكنني وجدت الاعجاز والدليل والحلقة المفقودة في حياة الرسول ﷺ عقلاً وفطرة دون خروج عليهما أو الغاء لهما بالخوارق المادية تجاوزا للسنن المادية.

إن المنهج العلمي يحتم أن يتم إثبات صدق الرسالة الخاتمة بأسلوب عقلي علمي يُلزم الأجيال على تعاقبها بصدقها بحيث تترك لدى المتأخر منهم يقينا لا يختلف في جوهره عن يقين من عاصر الرسالة وصاحب الرسول ﷺ ولذلك كان لابد لإعجاز الرسول ﷺ أن يتم على أساس من قواعد العقل والسنن التي جاءت رسالته باحترامها وطلب الإلتزام بها.

فتأييد رسالة الرسول ﷺ على الحقيقة ما كان له في جوهره أن يتعقل بحادثة أو حوادث خارقة، متفرقة، تتجاوز العقل والحس لا تلزم الباحث بالنواميس والسنن.

ولما كان مربط صدق الرسالة لا بد أن يتعلق بشخص الرسول ﷺ لذلك كان لا بد من النظر بدءاً في سيرة الرسول ﷺ وفي حياته أجزاء متفرقة وكليات مجتمعة واحداتها قياساً على حياة البشر وفطرتهم ليرى كيف تأتى لهذا الانسان أن يحمل رسالة الغيب إلى الناس.

لقد حفظ التاريخ لنا نص رسالة الإسلام وسيرة حياة الرسول ﷺ وأوضح لنا التاريخ

والقرآن الكريم أن محمدا ﷺ كان بشراً وعاش حياة البشر وكانت مفردات حياته بشرية مستقيمة. لذلك فإن إعجازه ودليل صدق رسالته لا يصح أن يخرج عن الطبيعة البشرية التي توجه بالخطاب إليها. ولكن أين الاعجاز في حياة هذا البشر وأين الدليل القاطع عقلا فيها على صدقه رسولاً يبلغ رسالة خيّرة ملزمة صادرة عن عالم الغيب.

وصفات يكون وجه الاعجاز في مفردات حياة الرسول البشر فكل مفردة منها مهما كانت عظمتها كان من الممكن أن يتصف بها إنسان آخر. وهنا نجد أننا لو تقصينا حياة الرسول ﷺ في جوانبها كافة لتبيّن لنا أن الإعجاز في حقيقته يكمن في اجتماع كل هذه الصفات وما ارتبط بها من ممارسات وإنجازات في شخصية رجل واحد. فوجه الاعجاز إذن ليس في بشرية أية صفة من صفات الرسول ﷺ ولكن في اجتماع كل هذه الصفات ونظام تفتحها في حياة رجل واحد من البشر.

وجمال هذا الاعجاز وروعته أنّه لم يخرج الرسول ﷺ عن طبيعته البشرية و لم يؤد إلى الغاء العقل والمنطق الانساني، و لم يحول دون توجه الرسالة إلى البشر وخطابهم من خلال فطرتهم وطبائعهم ومن خلال اطّراد من السنن لديهم فكان هذا الاعجاز البشري هو حلقة الوصل بين عالم الغيب والشهادة وهو الدليل العقلي العلمي القاطع على صدق الرسول ﷺ وحجية الرسالة.

وحتى نتبين ما عنيناه من الاعجاز الكلي لابد لنا من رحلة سريعة في حياته ﷺ وسيرته لنتتبع امهات صفاته وأحداث حياته لنجمعها إلى بعضها البعض ونستطيع بذلك أن نرى كيف يمثل اجتماعها وجه الاعجاز البشري من حياة محمد ﷺ ورسالته.

ولد محمد ﷺ ونشأ يتيماً يسيراً في حضن جدّه عبد المطلب ثم من بعده عمه أبي طالب في وادي إبراهيم الجدب في صحراء بلاد العرب.

مرّ محمد رسول الله ﷺ بكافة مراحل الحياة التي لو كان فيها دعاوي أو تطلعات لما أمكن لبشر أن يخفيها أو أن يحبك أمرها بحيث لا يبدو منها شيء في لاحق مسيرة حياته ما تفتح عنه من العلم والحكمة وقدرات القيادة والريادة الضائقة في كل أمر تصدى له وبنجاح بالغ بعد أن حمل الرسالة وقد تجاوز الأربعين عاماً.

كانت حياة محمد ﷺ صبيا ويافعا وشابا ورجلا مكتمل الرجولة وكهلاً وأبا وزوجا حتى سن الأربعين تتسم بالصدق والأمانة والوداعة وحسن الخلق مما دعا امرأة من كرام قومها وعقلائهم أن تأتمنه على مالها وأن تخطبه لنفسها تقديراً منها لصفاته الكريمة.

وأول ما يلفت النظر أن هذا الرجل حين يبلغ سن النضج في سن الأربعين وهي السن التي تهدأ فيها عواصف الرعُونة عند من كانت عاطفته ملتهبة وتخمد كثيرا من نارها وتكبح جماح من كانت تطلعاته جامحة وتلجمها. يدعو إلى رسالة خيرة من عالم الغيب إلى الإنسان يدعوه فيها إلى التوحيد والاخاء والعدل والتفكر وطلب العلم ونبذ البغي والطغيان والبطر والتسامح وحرية العقيدة.

وقابله قومه وهم سدنه البيت والأصنام بالدهشة والإنكار لهول القول وخطورة الأمر وجليل العواقب.

ومن العجيب أن يلزم هذا الرجل قومه الحجة عن صدق دعواه بتذكيرهم بصدقه على مدى حياته بينهم فكيف له أن يكذب عليهم في هذا الأمر الجليل. هل كان بإمكان محمد ﷺ أن يلزم نفسه الصمت وكبت القدرات والتطلعات على مدى حياته كلها وفي كل أطوارها، وهل كان له أن يستطيع أن يلزم نفسه صفة الصدق منذ مولده حتى سن الأربعين من عمره وهو يدبر الأمر ويخفى الكذب لكي يلزمهم تصديق "أكاذيبه وتلفيقاته الهائلة الآثمة". ما كان لبشر أن ينطوي على ما تفتقت عنه الأيام والأسلوب الذي توخاه لولا أنه أعد على عين الله حيث لا يتصف بشيء من القدرات والطموحات التي ستتفتق عنها الأيام ويتصف ـ وحتى سن الأربعين ـ بالأمانة والصدق وحدهما وهما الصفتان الأساسيتان لكل رسول مبلغ. هذا النوع من الاعداد والاداء وإن كانت مفرداته بشرية إلا أن اجتماعها كلها وعلى النسق الذي تفتقت عنه في حياة رجل واحد هو الاعجاز الذي يلزم العقل ولا يخرج على فطرته وطبعه.

إن العجيب المدهش أن ينتصب هذا الوديع الصادق الأمين عوداً صلبا داعياً إلى الإصلاح، وهو رجل أمي في أقصى الأرض من أمه بدوية حيث لا فلسفات ولا أروقة ولا مكتبات ليبدع القول الفصيح الرائق الخير على غير ما عرفته فصاحه العرب ويصر في عزم الشباب على دعوته على الرغم ما يناله وأصحابه من الأذى والعذاب على مر السنين. بل يزيده الأذى ومقاومة قومه قريش وتمسكهم بأوثانهم إصرارا على دعوته والصبر على أذاهم في وقت لا تبدو لاستجابة قومه بارقة أمل ولا يبدو لحلكة ليل الأذى انقشاعاً وتزداد الدهشة أنه بعد ثلاثة عشر عاماً من الدعوة إلى الخير دون ملل والصبر على الأذى دون كلل، أن تؤمن قبائل الأوس والخزرج سكّان يثرب فجأة

ودون سابق حسبان وأن يتعاهدوا على الانقياد ونصرة رسالته.

من العجيب أن يقيم محمد رسول الله ﷺ بقدرة فائقة ونجاح منقطع النظير دولة عدل وتسامح وإخاء وإحسان وحرية عقيدة. يسوس فيها ببراعة ويحكم فيها بعدل ويقضي ويدبر الأمر ويبني النظام ويقود الجيوش ويثري عليه القول الخيّر الفصيح المعجز.

أليس من العجب أن يكون لبشر كل هذه الإمكانات والقدرات فضلاً عن قدرته على اخفائها فلا يبدي منها شيئا في صباه وشبابه ورجولته، وفي كلّ أحوال حياته زوجا وأبا. هل كان في طاقة بشر أن يخطط مثل هذا الأمر وبهذا القدر المحكم على مدى الأربعين عاما منذ أن ولدته أمه؟ ثم كيف لهذا الأخضر العود قليل الخبرة والتجربة أن يتصدى للأنظمة والقبائل والصناديد مجتمعة ليهزمهم في السياسة والمنازلة لتنتهي دعوته ودولة رجاله إلى هدم امبراطوريات الظلم والجور في فارس وبلاد الروم وأن ينتشر ضوء رسالته على مدى القرون في كافة أرجاء الأرض على اختلافها شعوباً وألسنة وألواناً؟

إن نهج تفتح عود محمد ﷺ وقدراته على مدى ثلاثة وستين عاما هو المعجزة الحقيقية لتأييد رسالة محمد ﷺ. لقد آمن به رجال أفذاذ من قوم برهنوا تميزهم وقدرتهم على صفحات التاريخ، عرفوه وخبروه منذ عهد الصبا وعلى حال لا يرجى من خلفها طمع ولا نفع فكيف لأحد أن يأتي بعد أحقاب طويلة ليدعى أنه أقدر من أصحاب محمد ﷺ بصراً أو بصيرة ليعرف من أمر محمد ﷺ ما لا يعرفون ويحكم في أمره بما كانوا عنه غافلين.

إن حياة محمد ﷺ ونهج نموه وتفتح طاقاته وقدراته على النهج الذي تم أمر يحس وَجْهَ الاعجاز فيه كل إنسان. إن أي إنسان منا لا يجد غرابة في أي مفردة من مفردات حياة محمد ﷺ ولكن المعجز المستحيل هو انتظام كل هذه المفردات في حياة رجل واحد على مدى ثلاثة وستين عاما.

الرسالة الخيرة التي تبعث السلام في النفس وتشيع الإخاء بين البشر وتدعو إلى العدل والحق ومتواترة النص تصدر عن رسول صادق لابد أن يقطع العاقل بصدقها، فليس لهذه الرسالة إلا أن تكون رسالة من الله الخالق البارئ المصور يحملها رسوله إلى البشر رسالة ملزمة يتكامل فيها عالم الغيب مع عالم الشهادة ويتجلى بها معنى الوجود.

إن إدراك هذا الوجه في إعجاز رسالة محمد ﷺ الذي يتفق وأحوال الفطرة وطباع

البشر كان أولى بمنهج رجل كابن حزم، وهو أولى اليوم بالعقل المسلم في مسيرته نحو المنهج العلمي والتخلص من قيود التهويمات والضلالات والخزعبلات.

لقد مكنت هذه التأملات على إرساء فكري منذ سن الصبا على سبيل العلم ومنهج العقل وحمى هذا الفكر من أوضار الخرافة والأوهام والخزعبلات، ولله الحمد والمنة وهو الهادي إلى سواء السبيل.